# وداعًا عثمان

# عثمان بن عفان ﷺ ثالث الخلفاء الراشدين

إن الذين تتخبطهم الشكوك والتساؤلات حول «عثمان وعصره» فيسارعون أو يسارع بعضهم إلى «الخليفة العظيم» بأوزار لم يحملها إنما ضنّت عليهم الحقيقة بنفسها؛ لأنهم ذهبوا يقيسون ذلك العصر بغير مقاييسه، بل بضدّ مقاييسه!!

لقد كتب على «الخليفة عثمان» أن يحمل مسؤولية الحكم فى ظروف ليس لها فى جميع التاريخ نظير..

صحيح أن الفتوحات الهائلة، كانت قد أرست قواعدها فى عهد أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» .. وأخذت دولة الإسلام، ذلك الشكل السياسى الذى يُسمى بالإمبراطورية، وإن لم يرها المسلمون كذلك.

بيد أن «أمير المؤمنين عمر» ألقى بكل عزمه وثقله فى الكفة اليمنى من الميزان، حتى يظل «عصر النبوة» قائمًا وسائدًا، بكل آدابه، وتقاليده وتبتّله، وورعه، متوسلاً بذلك القمع الرهبانى الذى فطم به الأنفس ومنعها هواها..!!

* * *

لقد كان اغتيال «الخليفة عمر» إشارة البدء بمقدم عصر جديد.. لن يتخلى المسلمون فيه عن رايتهم، ولا مبادئهم، ولكن ستزحمهم فيه علامات جديدة، وتقاليد طارئة، ومشكلات وافدة، ستفرض الكثير من إرادتها على رتابة الحياة ومنهج الدولة، وتطلعات المجتمع.

وفى هذه الفترة الحرجة، والسنوات الصعبة، دعت المقادير «عثمان» ﷺ ليحمل المسؤولية الرهيبة .. مسؤولية الإبقاء على روح «عصر النبوة» والتفاعل مع «عصر الإمبراطورية»..

فسنرى إن شاء الله تعالى، من أى طراز جليل، كانت شخصية «عثمان» ومن أى طراز كانت خلافته، وكان حكمه، وما الذى أغرى الأزمات الضارية بأيامه وعهده.. وهل ذهب شهيد فضائله؟ أم ضحية أخطائه؟

سنرى رجلاً حمل مسؤوليته فى عزم مجيد ورشيد، وحين لم يجد ما يحمى به مسؤولياته سوى حياته، جاد بها فى سماح منقطع النظير ..!!

* * *

# المهاجر

و«عثمان» رضى الله عنه وأرضاه، رجل نادته الأقدار ودعته من بين صفوف العِلْية، والصفوة؛ عِلْية قريش، وصفوة العرب؛ ليأخذ مكانه مبكرًا، بين الأوائل المبكرين فى موكب الهُدى ودين الحق وحين تلقّى إشارة القدر ليتسلم دوره، لم يتردد لحظة..

ومن تحت سُقفه المرفوعة، ومن فوق فُرْشه الموضوعة من بين مناعمه ومطاعمه ودنياه الحافلة العريضة، خرج حاملاً أعباء دوره الجديد، مستقبلاً حياة المتاعب والتضحية والعطاء.

فإن أولى الألقاب به هو لقب «المهاجر».

فمن عليائه وثرائه، ومن جاهه العريض، ونعمائه الوارفة خرج إلى دعوة الله، ودعوة رسوله.

لقد أخذ مكانه مع السبعة الأوائل الذين أحاطوا برسول الله، وأخذوا مكانهم إلى جواره، وهو يعلم ما سيحيق به وبإخوانه من كيد، وضرّ، وبلاء نرجع إلى هذا اللقب «المهاجر»، إن الهجرة لم تكن بالنسبة «لعثمان» مجرد سفر، وانتقال من بلد إلى بلد.. بل كانت أبعد من ذلك.

لقد كانت سفر روح ونفس وحياة، قبل أن تكون سفر لحدود جغرافية وحدود إقليمية.

ولعلنا نستشرف هذا المعنى من الوصف الذى خلعه الرسول الكريم على صاحبه «عثمان» ﷺ حين نعته بـ «أول المهاجرين إلى الله بعد نبى الله لوط عليه السلام».

وذلك حين أمره بالهجرة إلى الحبشة ومعه زوجه «رقية»؛ لأن هجرته كانت هجرة «جوهر» و«ضمير».

وعثمان المهاجر بقلبه، وبروحه، وبضميره، سنحاول أن نتلمس عظمة الهجرة فيه، بتماسكه من اللحظة التى استقبل فيها الإسلام إلى اللحظة التى لقى ربه صابرًا مُحتسبًا.

أجل.. إلى آخر لحظات عمره، سنظل نرى «عظمة المهاجر» فى حياة «عثمان».

وقد يبدو فى هذه العبارة شيء من المبالغة عند الذين يقرؤون حياة «عثمان» ﷺ من آخرها.. ويظنون -مُخطئين- أن ذلك القسم الأخير من حياته، قد أصاب سابقته بالأذى والتشويه..!!

أولئك يبخسون الفضيلة قدرها، حين يظنون أن الخطأ أقوى منها!!

لا.. إن الفضيلة أقوى من الخطأ، والإيمان أقوى من الزلل.. ولسوف نلتقى فى السنوات الأخيرة لخلافة «عثمان» ﷺ ببعض التصرفات التى كشفت نتائجها عن حاجاتها إلى مزيد من الصواب، ولكن.. هل كانت هذه الأخطاء وليدة نتج عنها أن تنكر «عثمان» ﷺ، لمبادئه التى قام عليها إيمانه واقتناعه وفضائله..؟

هل كانت تحديًا لله، ورسوله، ولدينه..؟

إن ألد خصوم «عثمان» لم يستطع أن يُقنع نفسه بهذا الاتهام؛ بل كانت ثمرة اجتهاد من الخليفة لم تواتيه الحظوظ الوافية من رؤية الصواب.

وكانت ثمة ظروف عارمة غطت الدولة الجديدة المتّسعة، وفرضت عليها طُرُزًا جديدة من العلاقات والمشاكل، ومن العلل والنتائج..!!

* * *

قلنا: إن إسلام «عثمان» كان مبكرًا، فهو من أحد الخمسة، أو السبعة الأوائل الذين سبقوا إلى الإسلام وكان الرسول يومئذٍ يدعو إلى الله فى إسرار وخُفية، ولما علمت قريش شحذت أنيابها وراحت أحقادها تتلمظ بهذه العشيرة المؤمنة.

ويتلقى «عثمان» ﷺ من تلك الأحقاد الضارية، ويتولى أمر تعذيبه عمه الحكم ابن أبى العاص - فيوثقه بالحبال والسلاسل ويصرخ فى وجهه:

«أترغب عن ملة آبائك إلى دين مُحدث.. ؟؟ والله لا أُحل وثاقك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين».

ويجيبه «عثمان» فى إصرار «المهاجر» الذى عرف طريق الله: «والله، لا أدع دين الله أبدًا، ولا أفارقه» ..!!

ويوالى عمه تعذيبه .. ويوالى «عثمان» إصراره.. وتحاصره قريش كلها، آملة أن تُذل

كبرياءه، وتهز كرامته لكن المهاجر إلى الله كان قد نبذ وراءه عالمهم كله بما فيه من غرور وباطل وصمد للأذى.

ونمت أعداد المسلمين الذين دخلوا فى دين الله، وأوغلت قريش فى تعذيبهم واضطهادهم.

ورأى رسول الله ﷺ كثرة تعذيبهم، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة وكان على رأسها ملك عادل، يُنشد الأمن فى رحابه.

وكان «عثمان» أول مهاجر إليها، ومعه زوجته «رقية» بنت رسول الله ﷺ وكان الرسول قد زوجها له بعد إسلامه، ووقف الرسول يودعهما بنظراته الحانية، وقلبه الودود، ويقول: «**إنهما لأول من هاجر إلى الله بعد نبى الله لوط**»، ثم يعود إلى مكة بعد فترة .. ثم يهاجر إلى المدينة .. وفى كل زمان ومكان يحتويه تزداد روحه المؤمنة تعلقًا بالهجرة فى أعمق وأسمى مفاهيمها.

* * *

## عطاؤه وسخاؤه

عندما هاجر رسول الله ﷺ، وأصحابه إلى المدينة لم يكادوا يستقرون بها حتى فجأتهم مشكلة المياه، وكان بالمدينة عين تفيض بماء عذب طيب المذاق وتُدعى «بئر رومة» ويملكها يهودى، يبيع ملء القربة بمُدّ، وتمنى رسول الله ﷺ، لو يجد من بين أصحابه من يشتريها حتى يفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن.

وسارع «عثمان» ﵁، إلى تحقيق رغبة الرسول، فعرض على اليهودى صاحب البئر أن يبيعها له، فأبى .. فساومه «عثمان» على نصفها..

واشترى النصف باثنى عشر ألف درهم.. على أن تكون لليهودى يومًا ولعثمان يومًا .. فكان المسلمون يستسقون فى يوم «عثمان» ما يكفيهم يومين..!! وهكذا وجد اليهودى نفسه وقد خسر سُوقه التى كانت رائجة، فعاد يعرض على «عثمان» أن يشترى منه النصف الثانى، فاشتراه.. وفاضت البئر بمائها العذب تروى أهل المدينة بغير ثمن، وبغير حساب ..!!

* * *

وعندما كثر الداخلون فى دين الله بالمدينة، وصار المسجد يضيق بهم؛ تمنى رسول الله ﷺ، لو يجد من بين أصحابه من يشترى الرقعة المجاورة له كى تُضم إلى المسجد، ويزداد بها اتساعه، ومرة أخرى لم يكن هناك غير «عثمان» تلقف رغبة رسول الله فى حبور وغبطة، وذهب إلى ذلك المكان واشتراه بثمن باهظ قدّره الرواة بخمسة وعشرين ألفًا.

* * *

عندما فتح الله مكة لنبيه وعاد إليها ظافرًا كريمًا .. رأى أن يوسع المسجد الحرام، فعرض على أصحاب بيت ملاصق للمسجد أن يتبرعوا به لغرض التوسعة، فاعتذروا؛ لأنهم لا يملكون مالًا يشترون به سواه، ومرة ثالثة كان هناك «عثمان» لم يكد يبلغ النبأ مسامعه حتى سارع إلى أصحاب الدار الواسعة واشتراها منهم بعشرة آلاف دينار.

* * *

وسمع رسول الله ﷺ يقول: «من يجهز هؤلاء ... ويغفر الله له» هذا الجيش الذى نُعت يومئذٍ بـ«جيش العسرة» وما كاد «عثمان» يسمع نداء الرسول، حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان.

**يقول ابن شهاب الزهري:**

«قدَّم عثمان لجيش العُسرة فى غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيرًا وستين فرسًا، أتم بها الألف».

**ويقول حذيفة:** «جاء عثمان إلى رسول الله، فى جيش العُسرة، بعشرة آلاف دينار، صبها بين يديه، فجعل الرسول ﷺ، يُقلبها بيده ويقول: **«غفر الله لك يا عثمان، ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة»**.

**ويقول عبد الرحمن بن عوف:** «شهدت رسول الله ﷺ وقد جاءه عثمان بن عفان فى جيش العُسرة، بسبعمائة أوقية من الذهب».

تُرى هل كان «عثمان» ﷺ، قادرًا على كل هذا البذل الطوعى لو لم يكن قد هاجر إلى الله سبحانه هجرة صادقة أنسته كل شيء إلا الله ورسوله والدار الآخرة؟!

**لقد قال رسول الله عن هذا الرجل العظيم: «ما ضرّ عثمان ما صنع بعد اليوم، اللهم ارض عن عثمان، فإنى عنه راضٍ».**

**ويقول ﷺ: «لكل نبى فى الجنة رفيق، ورفيقى فى الجنة عثمان».**

وقال: **«أصدق أمتى حياء عثمان».**

**وقال للسيدة عائشة رضى الله عنها: «ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة».**

# الأواب

زوّجه الرسول ﷺ ابنته «رقية» ولما توفاها الله إليه، زوّجه ابنته «أم كلثوم»... ولما انتقلت إلى الرفيق الأعلى، أسِف الرسول إذ لم يكن له كريمة أخرى يزوجها صهره الحبيب.

وقال قولته المأثورة: **«لو أنّ لنا ثالثة لزوجناك إياها»** بل إن الحديث ليُروى بصيغة أخرى يقول: **«لو أن لى أربعين بنتًا لزوجتهن عثمان واحدة بعد واحدة»**.

فما المزايا والشمائل التى أهّلت «عثمان» لكل هذا الإيثار من رسول الله العظيم؟

إن رسول الله ﷺ، وهو الرؤوف الرحيم، لم يكن يستهويه من بين شمائل البشر مثلما تستهويه الرحمة، ومثلما يستهويه التبتل الصادق إلى الله والإخبات الوثيق إليه..

ولقد كان حظ «عثمان» من الإخبات والرحمة عظيمًا.

إنه أوّاب رحيم، صوام النهار، قوام الليل .. يتفجر قلبه رحمة وحنانًا، تعلق قلبه بالقرآن تعلق الواله الهيمان، فكان ربما استغرق الليل كله على طوله فى ركعتين اثنتين، يظل يقرأ فيهما من القرآن حتى تُروى روحه الظامئة المشتاقة.

وكتاب الله عنده هو الحجة البالغة، وهو فصل الخطاب.

كان ﷺ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.

**نراه يخطب المسلمين فيقول:**

**«أيها الناس.. اتقوا الله، فإن تقوى الله غُنْمٌ. وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نورًا لقبره، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيرًا»**.

**وفى خطبة أخرى يقول: «إن الله أعطاكم الدنيا؛ لتطلبوا بها الآخرة. ولم يعطكموها لتركنوا إليها...**

**إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، فآثروا ما يبقى على ما يفنى.**

إن الدنيا منقطعة.. والمصير إلى الله وحده».

وكانت روحه ترتجف وعبراته تفيض عندما يذكر الآخرة، وعندما يتخيل نفسه، وقد انشق عنه قبره .. ولقد رُوى عنه قوله: «لو أنى بين الجنة والنار، لا أدرى إلى أيتها يُؤمرُ بى، لتمنيت أن أصير رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير»!!

إن رسول الله ﷺ، بشره بالجنة، واصطفاه ليكتب له الوحى كما بشره بالشهادة، يوم كان يقف على مُرتفع من جبل أُحدٍ، ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فارتجف المكان الذى يقفون فوقه فضربه الرسول ﷺ، بعقبه وهو يقول: «**اثبت أُحُد، فإنما عليك نبى، وصديق، وشهيدان**»[1].

والمعلوم من فضائل عثمان ومحبة النبى ﷺ له، وثنائه عليه وتخصيصه بابنتيه وشهادته له بالجنة، وإرساله إلى مكة ومبايعته له عنه فى بيعة الرضوان فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**» فضرب بها على يده وقال: «**هذه لعثمان**».

* * *

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٦٩٧) فى كتاب المناقب من حديث أنس رضى الله عنه.

# ثالث الخلفاء

لما تُوفى عمر بن الخطاب وكان قد رُشح للخلافة ستة من الصحابة كما ذكرنا من قبل وهم: عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير ابن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف.

**وقال لهم**: «فإذا أنا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، ولا يأتى اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم».

فقام عبد الرحمن بن عوف على الفور بتنفيذ الوصية، فبادر فخلع نفسه، ثم اقترح عليهم أن يخلع أحدهم نفسه ويتنازل عن حقه فى الترشيح؛ ليكون صوته مرجحًا إذا قام خلاف، ثم تنازل «الزبير عن حقه لـ«علي»، وتنازل «سعد بن أبى وقاص عن الترشيح أيضًا وهكذا انحصر الاختيار بين «عثمان» و«علي» وفُوض «عبد الرحمن بن عوف» أن يُنجز المهمة فى الأيام الثلاثة التى أوصاهم الخليفة الراحل ألا يجاوزوها.

وكان عليه خلال هذه المهمة القصيرة أن يُجرى شورى واسعة واستفتاء عميًا بين أصحاب الرسول جميعًا.

وهكذا راح يقرع أبواب المدينة ودورها.

**يقول ابن كثير**: نهض عبد الرحمن بن عوف ﷺ يستشير الناس ويجمع رأى المسلمين عامتهم – جميعًا وأشتاتًا .. مثنى وفُرادى ومجتمعين .. سرًّا وجهرًا، حتى خلص إلى النساء فى بيوتهن، وحتى سأل الولدان فى المكاتب.. وحتى سأل الركبان الوافدين على المدينة».

ونواصل سيرنا مع «ابن كثير» لنرى معه كيف تم الأمر، وكيف حمل «عثمان» أمانة الحكم .. وما أفدحها من أمانة .!!

.. ثم يرسل عبد الرحمن بن عوف فى طلب «عثمان وعليّ» فقدما عليه، فقال لهما: «إنى سألت الناس عنكما، فلم أجد أحدًا يعدل بكما أحدًا..

«ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التى عمّمه بها رسول الله ﷺ،

وتقلد سيفًا، ونُودى فى الناس كافة: الصلاة جامعة. وتراصّ الناس حتى غصّ بهم المسجد وحتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا أخريات الناس وكان«عثمان» رجلاً حييًّا، ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول ﷺ، فدعا دعاءً طويلاً ثم تكلم، فقال: «أيها الناس! إنى قد سألتكم سرًّا وجهرًا، فلم أجدكم تعدلون على وعثمان أحدًا فقُم إلى يا على .. فقام إليه، وأخذ عبد الرحمن بن عوف بيده وسأله: هل أنت مُبايعى على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبى بكر وعمر..؟

**قال علي:** على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيى.

**ثم قال:** قُم إلى يا عثمان، فقام إليه فأخذ بيده وقال له: هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله، وفعل أبى بكر وعمر..؟

**قال عثمان:** اللهم نعم.

«فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان وقال: «اللهم فاسمع واشهد.. اللهم إنى قد جعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان..

«وازدحم الناس على عثمان يبايعونه»..

وكانت أول يمين شدت بالبيعة على يمينه .. يمين على بن أبى طالب .. وتتابع المسلمون جميعًا يُبايعون.

* * *

إنه الآن وقد صار خليفة، وشاء له القدر أن يكون أول رجل يجيء على أثر خليفتين ليس لهما نظير.

ويجيء بصفة خاصة بعد عشر سنوات «عُمرية» فرض فيها «الفاروق» على المسلمين منهجه الصارم، وعدله المكين وحمّل وُلاته وعماله على مثل ما حمّل عليه نفسه من زهد وتقشف وعناء، كان «عمر» ﷺ يرى إقبال الدنيا وهى فى بدايتها فيرتجف إشفاقًا على المصير.. ويقول: «إن للمال ضراوة كضراوة الخمر».

ويذكر قول الرسول ﷺ، لأصحابه يومًا: **«والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها»**.

وها هى ذى قد فُتحت .. وها هو ذا «عثمان» ﷺ يُدعى ليحمل المسؤولية ويمسك الزمام..

من أجل ذلك، كانت أولى كلماته إلى الناس فى أول خطبة له التنبيه لهذا الخطر قبل أن يستفحل فلا يستطيع المسلمون له دفعًا وهكذا وقف بعد تمام البيعة يقول: «... إن الدنيا طُويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور».

* * *

# إنجازاته

**بعد توليه الخلافة:**

نراه يبدأ كما يحدثنا ابن كثير: بالكتابة إلى ولاة الأقاليم، وأمراء الحرب والأئمة على الصلوات، والأمناء على بيوت المال، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحثهم على طاعة الله وطاعة رسوله ويحضهم على اتباع السنة وترك الإحداث والابتداع».

ورأى بيت المال عامرًا ممتلئًا .. فزاد من عطاء الناس، واتخذ فى المسجد سماطًا يقدم عليه بصورة دائمة الطعام الطيب للمعتكفين والمتعبدين، وأبناء السبيل.

إنه لم يكد يستقر فى منصبه ويتهيأ لإنجاز ما كان يود إنجازه من إصلاح، حتى فوجئ بالانتفاضات المسلحة تنقضّ على الدولة من كل مكان.

لقد نقضت دولة الروم عهودها السابقة، وكذلك فعلت بعض المقاطعات الفارسية.

لكأنما كان مقتل «عمر» ﷺ إشارة البدء بين قوى التمرد فقامت قومة واحدة فى «أذربيجان» وأرمينية وأغار الروم بأسطولهم على الإسكندرية و«فلسطين».

ولم يكن التمرد من شعوب تلك البقاع، وإنما جاء التمرد من فلول القوى التى كانت تملك قبل الإسلام وتسود، وقد أشاعوا فى بلادهم من أن الإسلام قد انتهى، وأن خليفته القوى «عمر» قد اغتيل بيد مجوسى منهم، وأن الفوضى شبت فى البلاد.

ولقد أغرى زعماء تلك الفتنة ما علموه من أن الخليفة الجديد رجل فى سن السبعين.

وعلى الفور بدأ الخليفة بالتصدى للقوى المتمردة فى «أذربيجان» و«أرمينية» فسيّر إليها جيشًا بقيادة «الوليد بن عقبة» فردهم إلى صوابهم، ووقعوا معاهدة بالشروط التى أنزلهم عليها من قبل «حذيفة بن اليمان» ﷺ.

وبينما كان «الوليد بن عقبة» وجيشه راجعين إلى الكوفة، جاءتهم الأنباء بأن الروم تتحرش بالشام، فأمره الخليفة أن يُجهز عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة رجل «أمين كريم شجاع» وأنجز «الوليد» أمر الخليفة فاختار الجيش وعلى رأسه قائدًا شجاعًا هو «حبيب

بن مسلمة الفهري» وأقبل الروم والترك فى جيش قوامه ثمانون ألفًا، والتقى الجيشان لتدور آخر الأمر على جيش الروم والترك، ولم يقف «حبيب» عند هذه الجولة الظافرة، بل سار متوغلاً فى بلاد الروم، يفتح الحصون الشاهقة، حصنًا وراء حصن.

وكانت مقاطعة «الري» قد نقضت هى الأخرى عهدها وتمردت فزحفت عليها قوة بقيادة «أبى موسى الأشعري» ردت المتمردين وأنزلتهم على العهد القديم.

وجاءت أنباء إلى الخليفة بأن الأسطول البحرى للروم قد أغار على الإسكندرية، فأرسل بأوامره إلى «عمرو بن العاص» واليه على مصر؛ كى يسير بجيشه إلى الإسكندرية، وهناك أنزل بالمتمردين هزيمة استأصلت شأفتهم إلى الأبد..

وإلى الشمال الأفريقى بعث الخليفة جيشًا كبيرًا بقيادة «عبد الله بن سعد بن أبى سرح» وأرسل معه «عبد الله بن عمر» و«عبد الله بن الزبير» وأقبلت جيوش البربر بقيادة ملكهم فى أعداد ضخمة حوالى مائتى ألف مقاتل. وكان لقاء رهيبًا، أبلى فيه المسلمون بلاءً باهرًا رائعًا لا سيما «عبد الله بن الزبير» الذى شهدت منه هذه المعركة بسالة منقطعة النظير.

وكتب النصر المبين للمسلمين، وعاد جيشهم الظافر بما لا حصر له من الأسرى، ومن الغنائم، والأموال.

ورأى الخليفة «عثمان» رضى الله عنه وأرضاه، أن الأسطول البحرى للروم يتخذ من جزيرة «قبرص» منطلقًا لعدوانه، فقرر غزوها، وأذِن «لمعاوية بن أبى سفيان» بغزو «قبرص» فأبحر إليها «معاوية» من الشام، وأمده الخليفة بجيش آخر بقيادة «عبد الله بن أبى سرح» وأطبقت القوتان على الجزيرة فاستسلمت ووقعت الصلح الذى فرضه المسلمون.

ويحضرنى أن أذكر النبوءة القديمة للرسول الكريم ﷺ، ذلك أنه كان ﷺ، يُقيِّلُ يومًا فى دار «عبادة بن الصامت» ﵁، ونهض من نومه وهو يضحك.

فسألته «أم حِرام بنت ملحان» زوجة عبادة بن الصامت، عمّا أضحكه.. فقال ﷺ: «**ناس من أمتى عُرضوا على يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرّة**».

**فقالت**: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم.

**فقال لها الرسول العظيم**: «**أنت منهم**».

ونام الرسول ﷺ، ثانية، ثم استيقظ وهو يضحك ويقول: **«ناس -آخرون- من أُمتى عُرضوا على يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة»**.

**فقالت «أم حِرام»**: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلنى منهم.

**فأجابها الرسول ﷺ: «أنت من الأولين»**.

كانت هذه النبوءة ذائعة بين الصحابة أيام كان الرسول ﷺ معهم لم يفارقهم بعد إلى الرفيق الأعلى، وكانوا ينتظرون تأويلها ويُعجبون كيف يركبون البحر مثل الملوك على الأسرّة!! حتى جاءت غزوة «قبرص» التى نحن بصددها فى عهد الخليفة الثالث «عثمان» فركبوا ثبج البحر لأول مرة، وكانوا فوق سُفنهم الكبيرة الظافرة كالملوك فوق أسرّتهم وعروشهم.

وفى هذه الغزوة خرج مع الجيش «عبادة بن الصامت» ومعه زوجه «أم حِرام بنت ملحان» رضى الله عنها، وتحققت نبوءة الرسول الصادق الأمين، لها حين قال لها: **«أنت منهم»**.

ولعلكم تذكرون أن الرسول عندما استيقظ ضاحكًا للمرة الثانية وهو يقول: **«ناس آخرون من أمتى يركبون ثبج هذا البحر»** وسألته «أم حِرام» أن يسأل الله لها كى يجعلها منهم، فأجاب الرسول قائلاً: **«أنت من الأولين»**.

وهنا تستكمل النبوءة صدقها الرائع، فإن «أم حرام» لم تعش حتى تركب البحر مع الآخرين، لقد ماتت بعد انتهاء معركة «قبرص» ودُفنت هناك، وعُرف قبرها الطاهر فيما بعد باسم «قبر المرأة الصالحة!!»

وجاءت غزوة «ذات السواري» لتؤكد صلابة الدولة المسلمة تحت خلافة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه.

فقد جمع إمبراطور الروم جيوشًا لجبة لم يلتق المسلمون من قبل بمثل كثرتها عددًا وعتادًا، وذلك على ظهور خمسمائة سفينة زاحفًا على بلاد المغرب ليلاقى بها «عبد الله بن سعد بن أبى سرح» وقد جمع «عبد الله» جيشه ونزلوا بسفنهم إلى البحر، والتقى الجمعان فى معركة تتحدى ضراوتها كل وصف.

وفكّر «ابن أبى السرح» فى فكرة عظيمة، وهى ربط سفنهم فى البحر بسفن الروم، ثم

راحوا يقاتلون بالسيوف والخناجر فى وسط البحر، وانتصر المسلمون انتصارًا حاسمًا، برغم من ضحايا المسلمين، وشهدائهم الذين كانوا من الكثرة على حد فادح، لكن قتلى الروم كانوا أضعاف أضعافهم، وفى النهاية هرب «قسطنطين» قائد الروم بجسده الذى أدمته السيوف وأثخنته الجراح.

وهكذا سارت جيوش الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان.

«معاوية» يوغل فى بلاد الروم حتى يقرع أبواب «القسطنطينية» ويزحف «ابن عامر» و«الأحنف بن قيس» و«الأقرع بن حابس» إلى فارس، وكرمان، وسجستان، ومرْو ... فيفتحون ويظفرون ومُهدت الأرض لزحف المسلمين حتى بلغوا السودان والحبشة فى الجنوب، والهند والصين فى الشرق.

ومع الجيوش العائدة من معاركها بالنصر، كانت الغنائم والأموال تتدفق على العاصمة، وكأنها أبواب السماء فُتحت بماءٍ منهمر ..!! ولم يشغل الخليفة الكهل الذى بلغ السابعة والسبعين، ذلك الجهاد الموصول، والغزوات المتلاحقة عن اهتمامه بالعمارة، فراح يُجمِّل المدينة، ويزيد فى بناياتها وعمارتها، مبتدئًا بمسجد رسول الله ﷺ، فوسّع فيه وبناه بالحجارة المنقوشة واتخذ عُمُدَه من الحجارة المرصّعة.

وقد بهرنا إنجازه الرائع العظيم فى جمع المسلمين على مصحف واحد حفظ القرآن بين دفتيه إلى يوم الدين.

فقد استدعى «زيد بن ثابت» الذى قام بجمع القرآن فى عهد «أبى بكر» و«سعيد بن العاص» و«عبد الله بن الزبير» و«عبد الرحمن بن الحارث بن هشام» وشرح لهم المهمة وجاءهم الخليفة بالمصحف الأول؛ ليكون دليلهم وأساس عملهم، وكان «عمر» قد أودعه قبل استشهاده عند ابنته «حفصة» رضى الله عنها وعندما أنجز الأصحاب عملهم الجليل، أمر الخليفة أن يُنسخ عدد من المصاحف وأرسل لكل إقليم من أقاليم الدولة مصحفًا.

ومضى الكاتبون فى كل إقليم ينسخون لأنفسهم ولغيرهم مصاحف أخرى من هذا المصحف الجامع الذى سُمّى يومئذٍ ولا يزال يُسمى إلى يومنا هذا «مصحف عثمان».

**أما سبب هذا الإنجاز العظيم:**

فقد بلغت الفتوحات آمادًا أبعد وآفاقًا أرحب، ومع هذا الفتح العظيم فى عهد عمر

وعثمان كان الإسلام يستقبل شعوبًا مختلفة اللسان، وفى بعض الغزوات التى اشترك فيها الصحابى الجليل «حذيفة بن اليمان» راعته الطرائق الكثر التى يُقرأ بها القرآن، وبعد أن أصبح القرآن كتاب شعوب كثيرة لكل منها لهجته ولسانه، فقد أمسى الاختلاف فى قراءته مصدر خطر عظيم، خطر يهدد وحدة الأمة الجديدة المنتشرة فى الأرض؛ أكثر مما يهدد القرآن ذاته .. فالقرآن تكفّل الله بحفظه حين قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] ولقد ظهر هذا الخطر فى الواقعة التى شهدها «حُذيفة» إذ نشب خلاف مُفزع بين أهل الشام وأهل العراق.

كان أهل الشام يقرؤون على قراءة المقداد بن الأسود وأبى الدرداء وكان أهل العراق يقرؤون على قراءة عبد الله بن مسعود، وأبى موسى الأشعرى. وتعصب كل من الطائفتين لقراءته وكاد الخلاف يُمسى نزاعًا فصدامًا.

ولم يكد «حذيفة» يفرغ من تلك الغزوة حتى امتطى راحلته يُسابق الريح إلى المدينة، وهناك وضع القضية بين يدى الخليفة الراشد، مختتمًا حديثه:

«يا أمير المؤمنين..أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف فى كتابها، كما اختلف الذين من قبلهم فى كُتُبهم..» ولم يتوان الخليفة لحظة، فقد أرسل من فوره إلى من كان بالمدينة من أصحاب الرسول، وشاورهم فى الأمر، ثم قرر أن يُكتب المصحف على حَرْفٍ واحد، وأن يجمع المسلمين فى عصره وإلى الأبد على قراءة واحدة تكون هى القراءة«الأم».

* * *

# السنوات الصعبة

إن التغيير الهائل الذى أحدثه الإسلام فى خريطة العالم المحيط به وفى عقائده، ونظمه، لم يكن ليمر دون أن يعكس آثاره على الإسلام نفسه، ومُمثلاً فى دولته وفى مجتمعه، وممثلاً بصفة خاصة فى القادة والروّاد الذين حُملوا أعباء هذا التغيير العظيم.

ولقد كان اغتيال الخليفة الراشد العظيم «عمر بن الخطاب» أمير المؤمنين ﷺ، نذيرًا واضحًا بأن ردود الفعل لتلك الفتوحات الإسلامية قد بدأت تُنفّذ قانونها وتفرض سلطانها.

ولقد مزّقت الفتوحات الإسلامية العريضة يومئذ مُلك «فارس والروم» وجاء الفتح بمشاكل الثراء الطارئ والدنيا الحافلة بالإغراء والاختلاط الهائل بين أجناس وأمم وتقاليد.

كان لا بد لهذا كله أن يعكس على الفاتحين ظلاله، ولقد كان الرسول ﷺ، يستشف من وراء الحُجب تلك الانعكاسات المنذرة يقول أسامة بن زيد رضى الله عنهما: أشرف النبى ﷺ، على أُطم -أى مرتفع- من آطام المدينة.

**وقال: «هل ترون ما أرى ..؟»**

**قال أصحابه الذين كانوا معه:** لا.

قال: **«فإنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»** ..

**ويقول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما:** قال رسول الله ﷺ: **«إذا مشت أمتى المطيْطاء** -أى الخيلاء- **وخدمتها أبناء الملوك** -فارس والروم- **سُلط شرارها على خيارها»** وبهذا، يُشير إلى ردود الفعل المحتومة لفتحهم الواسع العظيم ويهيئ نفوسهم لتأخذ حذرها.

لقد كان مقتل «عمر» ﷺ، كما قلنا الرصاصة الأولى التى أطلقتها قوى الشر المتحالفة ضد الإسلام، وهى القوى التى خضد الإسلام شوكتها وهم:

١ - **اليهود:** الذين أُجلوا عن المدينة، وشتتهم غدرهم فى البلاد.

٢- **الإمبراطورية الرومانية:** التى فرط الإسلام عقدها، ودفعها داخل حدودها الضيقة، وأبعد نفوذها عن البلاد التى كانت تحتلها.

٣- **الإمبراطورية الفارسية:** التى صنع بها مثلما صُنع بالروم والتى خسرت كل مصالحها وكنوزها وأساطين قادتها العسكريين، كل هؤلاء لم تجف دماء أحقادهم على الإسلام، ولم يهدأ الثأر فى أنفسهم إلا عندما تواتيهم الفرصة.

ولقد جاءتهم الفرصة فى مقتل «عمر» أمير المؤمنين.

من أجل ذلك رأينا التمرد المسلح يجتاح كثيرًا من البلاد التى كانت الإمبراطوريتان قد خسرتاها فى حروبها السابقة مع الإسلام.

ففى فارس كما فى الروم كان الكهنة، والقناصلة، وأشراف البلاط والإقطاعيون مالكو الأرض، ومحتكرو التجارة والثروات.. كان هؤلاء جميعًا يحملون للعرب وللمسلمين حقدًا رهيبًا.

وكان هناك على الجانب الآخر، يهود بنى قينُقاع، وبنى النضير الذين نُفوا إلى الشام، فاتخذوا فيها مكانًا للفتنة.

وكان «عمر» ﷺ، بكل يقظته، والدولة المسلمة بكل عنفوانها يقفان سدًّا منيعًا ورادعًا.

فلما مات «عمر» ﷺ، وجدت المؤامرات المسعورة لنفسها منفذًا.

وكان هذا الرجل العظيم «عثمان بن عفان» ﷺ دفعته مقاديره ليحمل فوق كاهله مسؤولية هذه السنوات الصعبة فى تاريخ الإسلام كله.

* * *

# بداية الفتنة

لقد وفد على المدينة من اليمن يهودى اسمه -عبد الله بن سبأ- وكُنيته -ابن السوداء- حيث انتحل الإسلام .. ثم انتحل الغيرة الشديدة على قيمه وحُرُماته.

وفى المدينة ألقى سمعه المرهف لكل كلمة، وكل نبأ، سمع نقدًا بريئًا يوجهه الصحابة لبعض الأخطاء، فراح يتتبعه ليجمع من شتاته صحيفة اتهام!!

ومضى يدرس فى صمت ودهاء كل جوانب الحياء فى المدينة، ويفحص مواطن الضعف والقوة ويتسمع أخبار الأقاليم والأمصار، ويتبين أقدار الصحابة وحظ كل منهم من النفوذ والمكانة.

حتى إذا جمع مادته، وعرف طريقه، وأتم رسم خطته، شرع على الفور فى العمل والإنجاز.

ولكى ينشر الاضطراب فى الدولة، راح يوجه مُبادرته الأولى إلى الخليفة ذاته، وإلى شرعية منصبه كخليفة للمسلمين.

وبدأ يردد هذه العبارة: «إن لكل نبى وصيًّا، وإن «عليًّا» وَصى «الرسول» ولقد وثب «عثمان» على أمر هذه الأمة، وأخذ الحق من صاحبه» وعلى الرغم من أن الإمام «عليًّا» رضى الله عنه، لم يكد يسمع دعوة ابن سبأ، حتى عنّفه وسفهه، وحذر المسلمين من خبثه وسوء تدبيره.

ولكن ابن سبأ ظل ينشر خطته، فرحل إلى البصرة.. ثم إلى الكوفة، ثم إلى الشام.. ثم إلى مصر التى استقر بها طويلاً.

وخلال رحلاته تلك، اصطفى من المفتونين به أنصارًا وحواريين أطلقهم ليطوّحوا بفتنته فى الآفاق، ورسم لهم الخطة قال: «تظاهروا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تستميلوا الناس إليكم .. وابدؤوا بالطعن فى أمرائكم .. وقولوا للناس: إن «عثمان» قد أخذ الخلافة بغير حق..

وإن «عليًّا» وصّى رسول الله، فانهضوا وردوا الحق إلى صاحبه ومن عجب أن الفتنة الضارية التى تمادت حتى مقتل «عثمان» ﷺ سارت وفق هذه الوصايا الثلاث:

**أولاً**: لبس المحرضون عليها مُسوح الرهبان، ورفعوا شعار الأمر بالمعروف وتغيير المنكر..!!

**ثانيًا**: راحوا يطعنون فى الأمراء والولاة، ويجسمون أخطاءهم ويدحضون وجودهم..!!

**ثالثًا**: رفعت الفتنة رأسها؛ لتواجه الخليفة مباشرة وتطالبه بضرورة التنحى والاعتزال..!!

ولقد كانت هناك عوامل كثيرة أحسن ابن سبأ ودُعاتُه استغلالها وكان على رأسها سلوك بعض المسؤولين والولاة من الأمويين، وأخذوا على الخليفة نفسه بعض المآخذ.

وقد لخصت هذه المآخذ من كتاب خلفاء الرسول، للأستاذ خالد محمد خالد إلى أربعة أصول وهي:

## أول المآخذ

**- عن الولاة:**

فلقد أخذوا على الخليفة أنه عزل نفرًا من الصحابة ووضع مكانهم نفرًا من أقربائه الذين لم تكن لهم أو لبعضهم سابقة ترفعهم إلى مستوى الولاية على المسلمين.

**والإجابة على هذا المأخذ**: أن «عثمان» ﷺ، وإن يكن التغيير من حقه، لم يستعمل هذا الحق مبادئًا، إنما دفعته إليه ظروف الأقاليم التى غير وُلاتها، إلحاح أهل تلك الأقاليم بضرورة التغيير .

**وكان أول إقليم هو الكوفة**: وكان واليه «المغيرة بن شعبة» ولقد رغب أهل الكوفة فى تغييره.. فعزله «عثمان» وولى مكانه «سعد بن أبى وقاص» الذى ظل حاكمًا للكوفة حتى نشب خلاف كبير بينه وبين «ابن مسعود» الذى كان خازنًا لبيت المال فيها فعزله الخليفة ووضع مكانه «الوليد بن عقبة» وبقى «الوليد» واليًا عليها وأبلى بلاءً مبينًا فى غزو أذربيجان وأرمينية، ولكن حين نمى إلى الخليفة أنه يشرب الخمر.. استدعاه إلى المدينة على الفور فأقام عليه الحدّ وعزله وولّى مكانه «سعيد بن العاص».

**وأما البصرة**: فقد أرسل أهلها وفدًا إلى المدينة يطلبون منه عزل واليهم «أبى موسى الأشعري» فاستجاب لهم.. وولى مكانه «عبد الله بن عامر».

**وأما مصر**: فقد تكرر إلحاح الوفود القادمة منها إلى المدينة طالبة تنحية «عمرو ابن العاص» وتولية آخر مكانه.

فعزله الخليفة عن الحرب والخراج، وأبقاه على الصلاة، وولى «عبد الله بن سعد بن أبى السرح» على الخراج والحرب .. ولكن نشب خلاف بينهما، فاستدعى الخليفة «عمرو بن العاص» إلى المدينة، وتفرد «ابن أبى السرح» بولاية مصر كلها.

هكذا كان موقف الخليفة من الولاة المعزولين.. استجابة سريعة لرغبات المواطنين فى تلك الأقاليم .. بعد ذلك قيل: إنه تخطى الصالحين من أصحاب رسول الله، فلم يولهم تلك المناصب الشاغرة.

**وأجاب الخليفة**: بأن أمير المؤمنين «عمر» كان يفعل ذلك أحيانًا، لا إهمالاً لشأن الصلاح والورع، ولكن نُشدانًا للصلاحية والكفاية، وضرب الأمثال ببعض الذين اختارهم «عمر» ﷺ للإمارة، على حين كان معه فى المدينة من أصحاب الرسول من يفوقهم ورعًا وتقوى..

* وأما إيثاره أهله الأقربين، يقول الكتاب الذى بين أيدينا خلفاء الرسول، فتلك مسألة لا نتردد فى القول بأنه كان من الخير للخليفة أن ينتهج فيها منهجًا آخر، مهما تكن كفاية الأقربين وصلاحيتهم.

**ويقول فى هذه الجزئية**: صحيح أن «عثمان» ﷺ كان من أكثر الناس حبًّا لأهله وصلةً لرحمه، وهذا الحب كان واحدًا من أسباب اختيار هؤلاء الأمراء .. بيد أنه لم يكن كل الأسباب.

فالفتنة التى نجحت يومئذٍ فى زلزلة الثقة المتبادلة بين المسلمين وخليفتهم وضعت الخليفة فى مُناخ نفسى حمله على التماس الثقة المفقودة عند أقرب الناس إليه، وأحناهم عليه .. فلنضع هذه من أسباب إثارة أهله وذوى قرباه.

ثم كانت على أيدى أولئك الأمراء وتحت إمرتهم وقيادتهم سارت جيوش المسلمين؛ لتقهر ذلك التمرد المنتشر كالنار فى أنحاء الدولة.

وباستبسال خيار الصحابة الذين اشتركوا فى تلك المعارك، عادت البلاد إلى حظيرة الإسلام وتحطمت جيوش «بيزنطة» وجيوش «الروم» وخفقت إلى الأبد رايات الإسلام فى تلك الديار.

من حق الخليفة إذن أن يعتز ببلائهم هذا، ومن حقه ألا يجعلهم مُضغة فى أفواه المتمردين والمخرّبين من أعوان «ابن سبأ» حامل لواء الفتنة وناشر الظلام.

**وهنا سؤال طرحه المؤلف للكتاب الذى بين يدى يقول:** حتى نكون أمناء على الحقيقة التى نقتفى آثارها.

**ذلكم هو:** هل كان أولئك الأمراء الذين اختارهم الخليفة من ذوى قرباه هدفًا لسخط المتآمرين وحدهم؟ أم أنهم كانوا كذلك موضع سخط نفر من خيار الصحابة وفُضلائهم..؟

**ونقول:** أن عددًا من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا ومعهم الإمام «على ابن أبى طالب» ﷺ، يرون صالح الأمة والدولة فى تنحية الأمراء الأمويين، وتنحية مروان بن الحكم الذى كان يشرف على ديوان الخلافة أي: أننا نستطيع القول: إنه كان هناك يومئذٍ مؤامرة ... ومعارضة.

**مؤامرة:** يتولاها ويعد لها الناقمون على الإسلام كله.

**ومعارضة:** يقوم بها نفر من خيار الصحابة رضى الله عنهم، يهدفون بها إلى تصحيح الخطأ، وإقرار الصواب.

لكن الخليفة كان يفكر فى القضية بطريقة أخرى، فهو غير مُقتنع بوجوب عزلهم لمجرد أنهم من ذوى قرباه.. ولا لأنهم تفسحوا فى مناعم الحياة.. هو يريد أن يُدانوا بأخطاء تستوجب عزلهم من أجل ذلك نراه يبادر بإجراء سديد.

فلقد اختار نفرًا من الصحابة الذين لا يختلف فى نزاهتهم، ولا فى أمانتهم وورعهم اثنان.

* اختار «محمد بن مسلمة» الذى كان أمير المؤمنين «عمر» ﷺ، يأتمنه على محاسبة ولاته، والتفتيش على الأقاليم، وتقصى أحوال الناس فى كل بلد.
* واختار «عبد الله بن عمر» البقية الصالحة من آل الخطاب، والإمام الفقيه الورع الذى عُرضت الإمارة عليه أكثر من مرة، ورفضها.

* واختار «عمار بن ياسر» المجاهد العظيم.
* واختار «أسامة بن زيد» الحِبّ بن الحِبّ.

اختار هؤلاء على رأس جماعة عهد إليهم السفر إلى الأقاليم والتحقق من مسلك كل والٍ وأمير.

أليس عملاً سديدًا ومنهجًا عادلاً وحكيمًا ..؟؟ بلى..

لقد عادوا جميعًا وقدموا للخليفة تقاريرهم وما شهدوه، وما سمعوه فما كان هناك خطأ واحد يستوجب عزل أمير..!!

عدا –عمار بن ياسر– الذى أُرسل إلى مصر لتقصى الحقيقة فطال بها مكثه..

تُرى هل تعتبر شهادتهم هذه دحضًا لموقف «الإمام عليّ» وإخوانه ؟. كلا كما أن موقف الإمام «عليّ» وأصحابه لا يُعتبر دحضًا لموقف الخليفة عثمان؛ لأن الفريقين متفقان على رعاية حرمات الإسلام، ولكنهما فى هذه القضية ينظران إليها من زاويتين مختلفتين.

فالإمام «عليّ» وأصحابه يرون لا حق «للطلقاء» فى ولاية أمور المسلمين .. خاصة أولئك الذين كان لهم قبل إسلامهم وبعد إسلامهم انتكاسات لا تجعلهم للولاية أهلاً.

و«الطلقاء» هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة تحت بريق السيوف، وأشرف الرسول ﷺ، على جموعهم الضارعة المرتجفة وناداهم: **«اذهبوا، فأنتم الطلقاء»**.

ومن هؤلاء، كان أولئك الأمراء الأُمويون الذين يدور حولهم الخلاف.

أما الخليفة «عثمان» رضي الله عنه، فقد كان له رأى آخر.. هو أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله وأن التوبة تجبُّ ما قبلها وأنه ما لم يُدَن أحدهم باقتراف منكر أو ظلم لِرَعيّة، فإن عزله عن الإمارة لا سيما تحت ضغط الفتن المسلحة التى يقودها جماعة من المخرّبين، يُصبح أمرًا فوق طاقة اقتناعه وضميره، وأن إسناد الولاية إلى نفر من أقاربه، نوعًا من تألفهم والإحسان إليهم، واستبقاء ولائهم للإسلام، فضلاً عما أظهروه من كفاءة واقتدار فى الإدارة والقتال، وهو يرى أن ذوى الكفاءة والمقدرة أفضل من ذوى الفضل والورع، وكان يتأسى بما كان يصنعه أمير المؤمنين «عمر» رضي الله عنه.

هذا كان رأيه فى أزمة الوُلاة، وهو رأى ازداد به اقتناعًا بعد عودة مبعوثيه إلى الأقاليم، معلنين فى أمانة وصدق أنهم لم يروا مُنكرًا، ولم يشهدوا ظلمًا.

لكن الإمام «علي» ﷺ، كان يرى أن تقوى الأمير أهم من كفاءته .. وإخلاصه أرجح من ذكائه .. وأنه إذا كان «عمر» ﷺ، قد آثر أحيانًا ذوى الذكاء والدهاء والمقدرة، فلأنه كان يُحكم قبضته على ولاته وأمرائه جميعًا بصورة لا تمكن أحدهم من أن يُغمض عينه عن الحق لحظة..

أما الآن والخليفة يُدلف نحو الثمانين، ثم هو بطبيعة الحال طيب متسامح، هادئ الفورة، مأمون الغضب فإن أولئك الأمراء يتصرفون تصرف من ليس وراءه مُعقب، ولا عليه رقيب.

**(هذا بإيجاز أول المآخذ)**

## ثانى المآخذ

- **خاصة بالأموال العامة:**

كل الذى قيل يومئذٍ وتولى المتآمرون تضخيمه، هو أن الخليفة كان يختص ذوى قُرباه بمزيد من الأعطيات من بيت المال..

وكل الذى حدث يومئذٍ أن الأموال قد درّت لِقاحُها وكثرت فى أيدى الناس جميعًا، وكثرت معها المناعم، واستشرى الترف، ولم يكن مع الأمراء الأمويين من الزهد، ولا من الورع ما يصرفهم عن مشاركة الناس فى ترفهم وتبذخهم، بل راحوا بحكم نشأتهم يُبالغون فى الترفّه والاستمتاع، وكان الخليفة عن اقتناع -لا عن استهانة- لا يَرى بأسًا فى أن يستمتع الناس ما شاؤوا بمناعم الحياة، ماداموا لا يأخذون المال من حرام، ولا ينفقونه فى إثم.

**ويقول مؤلف الكتاب فى هذه الجزئية:** نحن نسلم بداهة أن الخليفة «عثمان» ﷺ، لو سار فى هذه المسألة على نهج سلفه «عمر» ﷺ، وكبح جماح الأنفس عن الإغراق فى الطيبات المشروعة لكان ذلك أسلم، لا سيما بالنسبة للوُلاة والأمراء الذين يجب أن يظلوا دائمًا قدوة للآخرين فى بساطة العيش والترفع عن إغراء النعيم.

**ولكن سؤالاً يفرض نفسه علينا فرضًا.. هو:** هل كان ذلك ممكنًا مع رياح التغيير والتطور التى هبت على الدولة الواسعة العريضة من الجهات الأربع، حاملة أممًا شتّى .. وحاملة مع تلك الأمم والجماعات، تقاليد، وعادات تضطرم فى موج كالجبال..؟!

وفى ضوء هذه الحقيقة، فما تفسير مآخذ الإسراف والترف التى أرادوا أن يُحملوا الخليفة وحده مسؤوليتها؟!

الخليفة الذى تبقى ذمته برغم كل شيء، كاملة الطهر، ناصعة النقاء.

* * *

- موقفه من بعض فضلاء الصحابة:

نبدأ بالخلاف الذى كان بين الخليفة - وأبى ذر رضى الله عنهما.

«وأبو ذر الغفاري» واحد من أعظم الرواد الذين أنجبهم الإسلام[1] استخلص من روح الإسلام منهاجًا فى الزهد وفى توزيع الثروات وكان يريد «أبو ذر» أن تكون خلافة «عثمان» ﷺ، امتدادًا لأيام الوحى وأيام الصديق، وأيام الفاروق، فى زهدها، وتقشفها، ونبذها كل المغريات حتى المشروع منها والحلال.

أما فى الجانب الآخر، فقد كان أكثر الصحابة لا يرون بأسًا -أى بأس فى الاستمتاع بطيبات الحياة..

على أن «أبا ذر» وإن جاز أن يتسامح تجاه الاستمتاع المعتدل بالطيبات، فإنه لم يكن ليتسامح لحظة تجاه السّرف والترف واحتكار الضياع، واكتناز الأموال.

ومن ثَمَّ، لم يتردد فى أن يقطع الطريق وثبًا إلى الشام حينما سمع أنباء ما تموج به من ترف، وما يشق فضاءها من بروج وقصور ويغطى أرضها من ضياع وبساتين امتلكها وأخلد إلى نعيمها الأمراء ونفر أخر من الصحابة.

وفى الشام رفع لواء معارضة كادت تقصف بمقعد «معاوية» راح يتلو على الجماهير هذه الآية فكأنما يسمعها الناس لأول مرة:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

وحاول «معاوية» أن يُهدئ من ثورته دون جدوى فكتب إلى الخليفة يقول: «إن أبا ذر أفسد الناس» فجاءه ردّ الخليفة سريعًا: «أرسله إليّ».

---

(١) راجع كتاب «رجال حول الرسول» للمؤلف خالد محمد خالد.

وعاد «أبو ذر» إلى المدينة وجرى بينه وبين الخليفة حوار لم يقتنع أحدهما فيه بوجهة نظر الآخر».

وهنا نلتقى بروايتين تاريخيتين إحداهما تقول: إن الخليفة قرر إبعاده إلى «الربذة» - مكان بعيد عن المدينة- وأخرى تقول: إن «أبا ذر» هو الذى طلب من الخليفة أن يأذن له بالخروج إلى «الربذة» حيث يقضى بها بقية أيامه. وسواء صحت هذه الرواية أو تلك فليس ثمة شك فى أن الخليفة كان حريصًا على أن يظل «أبو ذر» إلى جواره بالمدينة قائلاً له: «ابق معنا تغدو عليك اللقاح وتروح» ولكنه رفض البقاء.

وهكذا خرج الصحابى الجليل فى هدوء إلى الربذة حيث عاش بها يعبد الله حتى نادته ساعة الرحيل.

ولقد زاره فى «الربذة» بعض متآمرى «الكوفة» يعرضون عليه أن يتزعم ثورة مسلحة ضد الخليفة، فإذا هو يجيبهم بهذه الكلمات الزاجرة: «والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة، أو أطول جبل لسمعت وأطعت، وصبرت، واحتسبت، ورأيت ذلك خيرًا لى.. ولو سيّرنى ما بين الأفق إلى الأفق، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت ذلك خيرًا لى.. ولو ردنى إلى منزلى، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت ذلك خيرًا لى..»!!

هذا بعض الذى قاله: «أبو ذر».

لقد استغل المتآمرون المغرضون ذلك الخلاف الصادق البريء فى إشعال نارهم التى يوقدون.

وصارت النصيحة الأمينة الهادئة التى يقولها صحابى جليل تتحول على أفواه المشائين بنميم إلى قذف وسباب.

وكلمات العتاب التى يرسلها الخليفة فى أناة، تتحول على نفس تلك الشفاه المسمومة إلى وعيد وتهديد وليس أشد إيلامًا لنفس الرجل الحيى المفرط الحياء، ولا أدعَى لغضبه من أن يتخذ الناس حياءه سببًا لاستضعافه وللتجرأ عليه، ولقد كان «عثمان» ﷺ، مفرط الحياء.. وبدلاً من أن يصُد هذا الحياء تهوّر المتآمرين على وقار الخليفة ومكانته هنالك مُلئت نفس الخليفة ألَمًا، وتأججت غضبًا، وقال للمتمردين قولته المأثورة: «... أما والله، لقد عبتم علىّ بما

أقررتم لابن الخطاب.. ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم..».

أما أنا.. فلنت لكم، وأوطأت لكم كنفى، وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم عليّ»
إن هذه الكلمات تكشف عن الجرح الذى أدمى مشاعر الخليفة الحيى المتسامح، الوديع!

ورجل مثل «عثمان» فى أناته وهدوء سمته، لا يتفجر غضبه فى كلمات كهذه إلا إذا كان الجُرح قد بلغ من نفسه أعماقها.

وفى جوّ نفسى كهذا، فإن مَسّ الصديق يُدمى البنان.

ومن هنا لم تكن نفس الخليفة الممتلئة بالجراح، مهيأة للتجاوب مع المعارضة التى أثارها رفاقه فى الدعوة.

أما الخلاف الذى حدث مع «عمار بن ياسر»، فكان حول بعض القضايا، ولعل «عمار» عالج الخلاف بطريقة أزعجت الخليفة، حيث كان بعض الولاة الأمويين قد أسرفوا فى قوتهم على معارضيهم، غير مفرقين بين صحابى جليل يجهر بالحق لوجه الحق وبين مُغرض دخيل يريدها فتنة عمياء.

ولقد كان من الممكن أن يظل الخلاف بين الخليفة وعمار محكومًا بحقوق الصحبة الغالية التى جمعت بينهما فى أيام العسرة وأيام الانتصار بل لقد بقى كذلك فعلاً برغم المضاعفات التى انتابته بفعل الغليان الذى كانت الأنفس تمور به مورًا.

وكما رأينا «أبا ذر» من قبل يرفض دعوة متمردى الكوفة؛ ليقود ثورة ضد الخليفة.. نرى الآن «لعمار» موقفًا مماثلاً.. فعندما حاصر المتمردون المسلحون دار الخليفة ومنعوا عنه الماء، غضب «عمار» وصاح فيهم:

«يا سبحان الله!! أتمنعون الماء عمّن اشترى «بئر رومة» ووهبها للمسلمين؟!».

ثم سارع إلى «الإمام عليّ» وأنبأه النبأ، واقترح عليه أن يحمل بنفسه قربة الماء إلى دار الخليفة، فلعل الثوار لا يجرؤون على اعتراض سبيله.

إن هذا الموقف بدوره، يعطينا الدليل على أن الخلاف بين الخليفة وذلك النفر الكريم من الصحابة، ما كان ليطغى على جلال الصحبة التى جمعتهم فى الله إخوانًا.

على أن الخلاف الذى شابه كثير من الجفوة، هو الذى كان بينه وبين «عبد الله ابن مسعود» ذلك الصحابى الرائع فى تضحياته، واستبساله، وفى صحبته لرسول الله ﷺ.

ولقد تفاقم الخلاف بين الخليفة وبينه، حتى قطع الخليفة عنه راتبه من بيت المال.. ولكن، لا يكاد الخليفة يعلم بمرض «ابن مسعود» ذلك المرض الذى لقى فيه ربه، حتى يغشى ضميره، ندم عظيم ويخرج إلى دار «عبد الله» متوكئًا على شيخوخته المجهدة .. ثم يمعن فى الاعتذار لابن مسعود، ويرجوه فى إلحاح أن يغفر له ما كان منه، وبعد أن مات ودُفن، دون أن يخبروا الخليفة بذلك خرج حزينًا إلى قبره ورثاه قائلاً: «دفنتم والله خير من بقى من أصحاب رسول الله» وكما حدث من «أبى ذر وعمار بن ياسر» حين رفضا أن يستغل المتمردون خلافهما مع الخليفة، حدث موقف شبيه من «عبد الله بن مسعود» ففى مرض موته عاده بعض أولئك، وتهددوا الخليفة فى حديثهم معه بالموت فزجرهم «ابن مسعود» وقال: «أما إنكم إن قتلتموه، لن تُصيبوا مثله».

هكذا كان الخلاف بينهم مهما تضطرم موجاته، لا يلبث أن يقهر حدته ولاؤهم للصحبة الجليلة التى أنشأها بينهم دين الله وصحبة رسوله.

* * *

## رابع المآخذ

**- عن موقفه من بعض مسائل فى الدين .. إذ كان له فيها اجتهاد خاص:**

لم يكتف المتمردون الخوارج بتلك الاتهامات الباطلة، بل راحوا يُرجفون بأن «الخليفة» يبتدع فى الدين بدعًا لم تكن على عهد رسول الله ﷺ، ولا فى عهد صاحبيه.

* **قالوا:** إن الخليفة وحّد المصاحف كلها فى مصحف واحد، وجمع المصاحف الأخرى وأحرق أوراقها .. ولقد فصلنا هذا الأمر من قبل، وشرحنا أسبابه.

* **وقالوا:** إن الخليفة أتم الصلاة بمكة فى أثناء حجه، وكان الرسول وصاحباه يقصرون الصلاة.

وهذه وحدها كافية فى الكشف عن حقيقة البواعث الشريرة الفاسدة التى كانت تحرك أولئك الخارجين، وكيف كانوا يتصيدون الوهم؛ لينسجوا منه اتهامًا يحملون العامة به على مهاجمة الخليفة والسُّلطة؛ فقصرُ الصلاة فى السفر رُخصة لا واجب، وإذا تخطى المسلم الرخصة إلى العزيمة، فلا تثريب عليه ولا حرج.

وإن الإمام «علي» رضى الله عنه قد أجاب عن هذا المأخذ وهو يحاور المتمردين فقال: «إن الخليفة كان قد تأهل بمكة ونوى الإقامة بها، فأتم صلاته».

وقالوا وقالوا .. ولم يشبعوا قولاً ولا بهتانًا!!

**«وهذا بإيجاز المأخذ الرابع»**

* * *

# ضيف الجنة الشهيد

الخليفة «عثمان» ﷺ، وقد بلغ الثمانين من عمره، لا تزال خصاله وفضائله غضّة فتية، تقوده على طريق اقتناعه ومبادئه فهو يكره سفك الدماء، وينأى عن القسوة، ثم راح يحاول أن يحسر المدّ المتآمر بالرفق تارة .. وبالزجر تارة أخرى فلا الرفق أغنى ... ولا الزجر أفاد..!!

لم يكن أحد يتوقع برغم ضراوة التمرد أن يدًا ستمتد إلى حياة الخليفة فتغتالها.

* إنه شيخ فى الثمانين من عمره، بل جاوز الثمانين.

* إنه من المؤمنين الأوائل المبكرين.

* وإنه صهر رسول الله ﷺ.

* وخليفته.

* والمبشر بالجنة.

* ومجهز جيش العُسرة.

* والباذل ماله بغير حساب فى سبيل الله ورسوله ودينه، فمن ذا الذى لا يرعى كل هذه المحرمات؟!!.

وبعد:

وذات يوم، وقد ضاقت الدنيا لصموده، امتطت روحه زورق الأبدية مُبحرة إلى ربها الودود المجيد وعليه دماؤه الغالية الزكية.

ألا بُورك للجسد المثخن..

وبوركت روحه الناجية.

ويا شهيد فضائلك، واقتناعك .. سلامًا، ووداعًا..!!